تفسيره لما ذيلت به الآيه — ٦٣ — من سورة المائدة وهو قوله تعالى « لبئس ما كانوا يصنعون » مبينا سر التعبير بهذا التذييل .. وما ذيلت به الآيه قبلها « لبئس ما كانوا يعملون » فقال «لبئس ما كانوا يصنعون» أبلغ من قوله «لبئس ما كانوا يعملون » من حيث إن الصنع عمل الإنسان بعد تدرب فيه ومر ومحر وأجادة . . ولذلك فـ م به خواصهم .. ولأن الترك أقبح من مواقعه المعصية . . لأن النفس تلتذها وتميل إليها .. ولا كذلك ترك الأنكار عليها فكان جديراً بابلغ الذم »(١) .

وهكذا يكون لكل لفظة من ألفاظ القرآن وقع خاص وإيحاء معين. وبالتالى تتعدد الأيحاءات القرآنيه بتعدد ألفاظه .. ولو كانت متجاوره ... وتلك آيه من آيات إعجازه .. وأمارة من أمارات خلوده .

---

(١) البيضاوى حـ ١ صـ ٢٣٨

رابعاً — الإيحاءات القرآنية التى تنبعث من مادة صنع فيما تدور حوله من المعانى المتقدمة :

ما كان القرآن وهو المنزه عما لا يليق به أن يذكر هذه المادة فيما يبلغ نحواً من الثمانية عشر موضعاً من سوره الغراء لمجرد الذكر فحسب .. وإنما ذلك فحسب .. وإنما ذلك لإيحاءات سامية .. يلوح سناها من أفقه الطاهر الأغر .. ومن بين جنباته النيرة لكل من يعيره أذناً واعية ويقصد رحابه ببصيرة متأملة وها أنذا أذكر طرفاً من الإيحاءات حسبما فتح المنعم وأنعم به المولى .

١ — ورود مادة صنع فى الآيات السابقة بمثل هذه الكثرة الكثيرة يوحى بما للصناعات من اهتمام فى اعتبار القرآن نظراً لأنها مورد الإنتاج ووجه مربح من وجوه الاكتساب ، لهذا يتعين على المسلمين أن يشتغلوا بها وبالاكتساب من طريقها لتوفير مطالب الأمة من منتجاتها تحقيقاً لعزتها ، ودرءاً للخطر الذى يلحقها من جراء التخلف فيها .

٢ — يوحى القرآن أنه لا يصح للصانع المسلم أن يكسب رزقه من الاشتغال بصناعة محرمة كصناعة المسكرات وما إليها ، وإن زينها له هواه بل ولو كان الاسترباح منها مغرياً حتى لا يدخل فى زمرة من قال فيهم « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، وحتى لا يستهدفه الوعيد الشديد الوارد فى ختام هذه الآية « إن الله عليم بما يصنعون » أى من الشرك وسوء العمل فيجازيهم عليه .

٣ — صدور الأمر من القرآن لنبيه — عليه السلام وبجميع للمسلمين بالعبادة « وأتل ما يوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة » وقرنه تعالى هذا الأمر بما يفيد تمام علمه بما يصنع هؤلاء المأمورون ومجازاتهم عليه يوحى بضرورة الارتباط الوثيق بين الاشتغال بالصناعات وبين أداء العبادات

التى يفرضها الإسلام لتسهم بنصيب وافر فى تقويه وازع الإيمان فى نفوس الصناع المسلمين الذى سيدفعهم دائما إلى الإتقان والإحسان نظراً لما يصبح فى اعتباراتهم من الإحساس القوى باطلاع الله عليهم ورقابته لهم فيكون كل همهم أن يرضوا ربهم بجودة أعمالهم مكتفين بما يحقق لهم ذلك من متعة نفسية وسعادة قلبية .

وهذا مالا يدركه الصناع فى ظل النظم الإنسانية الأخرى التى لاتستطيع أن تخلق فى نفوسهم الرقابة الذاتية التى يحققها الإسلام وإنما هى تكتفى لذلك بما تهيئه من رقابة صارمة تدفعهم من خارجهم إلى العمل دفعا يهدر بالآدمية ويزرى بالكرامة .

ويوم نجد المجتمع الصناعى المسلم فوق ندرك على يديه الخير الكثير .

٤ — يوجب القرآن على الصانع المسلم ألا يغتر بمهارته فى صنعته وألا ينسى فضل ربه عليه فيما زوده به من ملكات أهلته لتلك المهارة ، ولتحقيق ذلك فإن عليه أن يمعن النظر فيما حوله من صنع خالقه مدركا بعد البون بينه وبين صنع يده ، حينئذ سيعرف قدره ويستصغر شأنه فتتطامن نفسه ، ويذايله غروره وعجبه، وليكن على تذكر دائما بما يصنعه القرآن فى يقينه من الإيمان بما سوف يشاهده يوم الفزع الأكبر من رؤيه الأجرام الضخام من الجبال ونحوها فيخيل إليه أنها جامدة فى أماكنها ، بينما هى فى الواقع ونفس الأمر تسير سير السحاب ، وعندما يتبه ذلك لا يسعه إلا أن ينطق بما نطق به الحق « صنع الله الذى أتقن كل شىء » أى أحكمه وسواه .

٥ — يحذر القرآن المشتغلين بالصناعه من المسلمين من أن يتخذوا صناعاتهم أدوات للعبث بأمن الآمنين أو التطاول بها على الله تعالى من هيمنة وسلطان وذلك ما نبه إليـــه هود قومه عاداً مرارا وتكرارا حينما اتخذوا من الأمكنة المرفوعة من الأرض أبنية وأبراجا يجتمعون فيها

للعيث بمن يمرون عليهم كما بنوا قصورا وأبراجا وحصونا ومآخذ للبناء من آبار وحياض زعما لخلودهم واغترارا بقوتهم ، أتبنو بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون » .

قال الآلوسي « ودل توبيخه عليه السلام إياهم بما ذكر على استيلاء حب الدنيا والكبر على قلوبهم حتى أخرجهم ذلك عن حد العبودية » .

ولما لم ينتهوا إلى ما أراد عليه السلام تنبيههم إليه ، وأمعنوا في غيهم وفسادهم حل بهم ماذكره القرآن لنا « وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية »(١) .

٦ — نظرا لكون المشتغلين بالصناعة يتعين عليهم مخالطتهم بغيرهم بحكم تعاملهم معهم ، وقد تعتد بهم هذه المخالطة إلى دخول بيوتهم لإنجاز ما يريدون صنعه داخل هذه البيوت ، وربما يتراءى لهم حينئذ شيء من نساء أهل البيت فإن القرآن — والحالة هكذا يلزم بضرورة غض البصر عما لا يحل النظر إليه ، والقبض على زمام الشهوات كي لا يسترسل الخيال ، وكف الجوارح عن الامتداد إلى المحظور فإن ذلك أنفع لهم وألزم .

فبعد أن أمر الله تعالى بغض البصر وحفظ الفرج قال: « وذلك أزكى لهم » إن الله خبير بما يصنعون [ قال القرطبي ( ذلك أزكى لهم ) أي غض

---

(١) ج ٧ ص ١١ (٢) الحاقة ٦ — ٧

البصر وحفظ الفرج أطهر فى الدين وأبعد من دنس الآثام ( إن الله خبير ) أى عالم ، بما يصنعون ، تهديد ووعيد )[1] .

٧ — اكتساب المال من الاشتغال بالصناعات أمر محمود ومشكور . إذ فيه الغناء عن الاحتياج إلى الغير ، وعلى المسلم ألا يستنكف من مزاولة أية صناعة تسوقه أقداره إليها ولا يجد بديلا ، مهما كانت ضآلة مكسبها ونظره الآخرين إليها ، وحسبه فى ذلك أن يقتدى بنبى الله نوح حيث إنه كان نجاراً وقد رد على هزء الهازئين به وهو يصنع السفينة قال « إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » وأن يقتدى بنبى الله داود فإن صنعته كانت الحدادة ومع مافيها من بذل الجهد وعظم المشقة أمره الله هو وأهله بإدامة شكره وذكره « فهل أنتم شاكرون » .

٨ — يوصى القرآن بضرورة إجادة الصانع لما يصنع ، وإفادة ذلك تؤخذ من سر إلقاء الله محبته على موسى وهو ليتربى على مرىء منه وحسن رعايته له ، أو هو ليعمل تحت رعايته بما شرع الله له ولا يخالف أمره « ولتصنع على عينى » وتؤخذ من سر اصطفائه له ، إذ أن هذا الاصطفاء لا يكون إلا بعد إعداد وتهيئة « واصطنعتك لنفسى » .

٩ — التفنن فى إنتاج المصنوعات المدمرة من الأعداء لمجابهة دين الحق وغلبة أهله أمر خائب قصده وباطل كيده شريعة أن يتمسك أهل الحق بدينهم وألا يحيدوا عن تعاليم ربهم ونبيهم ، وأن يأخذوا حيطتهم ما يمكن لمواجهة عدوهم « وألق ما فى يمينك تلقف ماصنعوا إن ماصنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى » .

١٠ يرشد القرآن أن أية صنعة ينتجها الكافرون لا لتحقيق منفعة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ١٢ ص ٢٢٦

للإنسانية وإما لإلحاق الضرر بها كوسائل التدمير والتخريب يكون عليهم إثمها ووبالها ، وإن اعتقدوا أنهم بذلك يحسنون صنعاً . أما ماينتجون من صناعات فيها نفع عام أو خاص فإنهم يستوفون أجورهم عليها فى الدنيا من سعة رزق وتحقيق رئاسه وكثرة أولاد .

١١ — لابد من الاعتراف بفضل الله فيما هدى إليه العقول من تعلم الصناعات وتحقيق النبوغ فيهـــا ، وإلا فسوف يحل بهم مايترتب على الكفران بالأنعم من ذهاب الأمن وانتشار الجوع والخوف .

١٢ — صدق نبوءة القرآن فيما أنبأ به من حتمية إصابة القوارع والدواهى للكافرين الذين لاهم لهم إلا التنافس الفاحش فى إنتاج الصناعات التى تحيل أمن الآمنين خوفا . إذ لانزال بين الحين والحين نسمع الكثير من أنباء إنفجارات مفاعلاتهم الذرية ، وتحطم طائراتهم الحربية وسقوط أقارهم الصناعية ، فضلا عن خوف بعضهم من بعض ، وتربص بعضهم ببعض ، وسيظل الحال على هـذا إلى أن يأتى وعد الله بهلاكهم ويكتمل صدق ما أخبر القرآن بشأنهم وأمثالهم ، ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم » .

وهذه الآية وإن قال عنها بعض المفسرين إنها نزلت فى كفار مكة فإن مفهومها عام يتناول كل كافر ما يصنع .

١٣ — تحذير المجتمعات الصناعية من التحكم فى رقاب المستضعفين من شعوب العالم ، خشية تبدل الوضع ، وتغير الحال ، ولتكن لهذه المجتمعات عبرة بما لحق فرعون من تحرير مستضعفى بنى إسرائيل من قبضته وتوريثهم مشارق الأرض ومغاربها بعد تدمير قصوره وحصونه وتحطم الصرح الذى شيده له هامان لغروره الزائف وأمنيته الباطلة .

« وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ؛ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » [ ورد فى تفسير الجلالين ( ودمرنا ) أهلكنا ما كان يصنع فرعون وقومه من العمارة « وما كانوا يعرشون » بكسر الراء وضمها يرفعون من البنيان ][1] .

١٤ — على هذه المجتمعات ألا تأمن مكر الله لطول إمهاله لها رغم عتوها وجبروتها ، حتى لو قدر لها النجاة طيلة حياتها فإنها لن تسلم من الجزاء الذى يشير إليه قوله تعالى « وسوف ينبؤهم الله بما كانوا يصنعون » .

١٥ — يجب على علماء الدين الإسلامى القيام بدور نشط فى إبعاد المشتغلين بالصناعات من المسلمين عن قول الكذب وأكل الحرام ، حتى لا يعمهم التوبيخ الذى ساقه الله لأحبار اليهود والربانيين لعدم نهيهم عامتهم قول الإثم وأكل السحت ، وكان آخر ما وبخوا به « لبئس ما كانوا يصنعون » .

فى ظل هذه الإيحاءات القرآنية وفى إطار الحث على تطبيقها عملا وتوكا أورد القرآن جملة من الصناعات لاكتساب المال منها ، وتحقيق النفع بها ، وقد أشارت إليها إشارات إجمالية ، دون خوض منه فى شرح التفاصيل تاركا ذلك ليختار كل عقل ما يلائمه ، وأهل كل بيئة ما يناسبهم وبذلك يكون فى تشريعات القرآن متسع فسيح للأخذ بكل جديد صالح تتطلبه الحياة وتستلزمه مقتضيات الأمور ، وهذه خصوصية انفرد بها الإسلام عن الأديان قبله يقول الأستاذ العقاد « وليس معنى ذلك أن الإسلام ينفض يديه من مهمة الإصلاح الاجتماعى فى زمن من الأزمان كان أو يكون ولكن معناه أن يقرر الإنسانية أصولا لا لتحقيق لها صلاح

---

(١) الفتوحات الإلاهية جـ ٢ ص ١٨٥

بغيرها ثم يفوض للعقل الإنسانى كل الرأى فى اختيار مايلائمه من تفاصيل. الإصلاح غير مقيد له بفرع من الفروع المتجددة مادام أمينا على تلك الأصول»(١) .

وبذلك تتحقق صلاحية الإسلام لأهل كل زمان ومكان وتمتد كفايته لتشمل كل المشاكل بالحلول وتقديم البدائل وفيما يأتى بيان لما أشار إليه القرآن من الصناعات .

---

(١) الفلسفة القرآنية ص ١٩٥

خامساً : الصناعات التى أشار إليها القرآن :

كان من الطبيعى للقرآن وهو الذى له ما تقوم من الإيحاءات النافعة أن يعنى بتوجيه المسلمين إلى الإفادة من الصناعات بشتى ألوانها ، ومختلف عاماتها سواء كانت تلك الخامات مستخرجه من باطن الأرض أو مستنبته منها كالزروع والثمار والأخشاب أو أنتاجاً حيوانياً يعيش على الرعى فيها والأكل منها ، أو مواد مستخلصة من البحار والأنهار الجارية فيها .

وقد ورد هذا التنبيه فى معرض الحديث عن نعم الله خلقه فى تسخير هذه الخامات لهم ، وامتنانه بهـــذه النعم والإفادة منها بالنسبة لمن قبلهم لتحقيق الأستفادة منها بتصنيعها والأكتساب منها كغيرهم . ولهذا جاءت أشارات الكتاب العزيز إلى بعض الصناعات على النحو الآتى : —

١ — بالنسبة لما يخص الصناعات القائمة على المعادن المستخرجة من الأرض ، أرشدنا القرآن إلى أهمية الحديد الذى أثبت كل الدلائل أنه من ألزم المواد لقيام الصناعات الثقيلة التى تقى الأمة شر عـــدوها وتحقق أزدهار أقتصادها وتعمل على نشر الرخاء بين ربوعها .

« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس »(١) .

ولهذه الأهمية بنه القرآن بعظم فضـل الحديد ، ومدى أثره فى قيـام الصناعات حتى إنه سمى السورة التى ورد فيهـا ذكره باسمه وهى سورة الحديد ، وعلمنا كيف نستفيد منه بما حكى لنا عما أنعم به على نبيه داود عليه السلام إذ يقول « وألنا له الحديد »(٢) .

---

(١) الحديد ٢٥

(٢) سبأ ١٠

( قال الألوسي : وجعلناه في يده كالشمع والعجين يصرفه كما يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقه قاله السدي وغيره ، وقيل جعلناه بالنسبه إلى قوته التي آتيناها إياه لينا كالشمع بالنسبة إلى قوى سائر البشر )(١) .

وذلك لتيسير له عليه السلام تنفيذ ما أمر به من صناعة الدروع على أتم ما تكون من الجوده والإتقان وأن أعمل سابغات وقدر في السرد»(٢) .

أي أصنعها وأحكم حلقاتها ومساميرها لتصلح لتأديه الغرض المرتبط بها وهو ما ورد التصريح به في الآيه الكريمة « وعلمناه صنعه لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون » فهذه الآية وإن وردت المنه في صدرها بالنسبة لغيرنا فإن بقيته مقاطعها خاصة بنا .

وهذا توجيه صريح من الله إلينا أن نمارس بأنفسنا ذات الصنعة التي علمها نبيه داود عليه السلام وهي صنعه الدورع وخاصته أنه أضاف الفائدة من صنعها إلينـــا حينما قال « صنعه لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم وأنه كذلك حضنا على أن نقابل هذه المنه بالشكر عليها في قوله تعالى : « فهل أنتم شاكرون » .

يقول الامام القرطبي : « هذه الآية أصل في أتخاذ الصنائع والأسباب وهو قول أهل العقول والألباب لا قول الجهله الأغبياء القائلين بأن ذلك أنما شرع للضعفاء ، فالسبب سنة الله في خلقه ، فمن طعن في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنه ، ونسب من ذكرنا إلى الضعف وعدم المنه .

وقد أخبرنا الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدورع وأنه أيضاً كان يصنع الخوص وكان وكان يأكل من عمل يده ، وكان آدم

---

(١) حـ ٨ ص ١١٤
(٢) سبأ ١١

حداد، ونوح نجاراً ولقمان خياط وطالوت دباغاً وقيل سقاء، فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس، وفي الحديث «إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتعفف السائل الملحف»(١).

وهكذا دأب أئمة الإسلام وأعلامه، يمثل هذه التوجيهات — على استثارة جهود المسلمين ودفع عزائمهم إلى حسن استغلال ما سخر الله لهم من معادن بتصنيعها وكفاية أمتهم بما ينتجون من تلك الصناعات وما ينأى بهم بعيداً عن رذيلة التكاسل التي لا يلازمها عادة إلا الفقر والعار.

ثم أرشدنا القرآن إلى معدن آخر له أهميته في إقامة الصناعات المفيدة وهو معدن النحاس، وعلمنا كيف نفيد منه في صناعاتنا بما ذكر لنا من امتنان الله على نبيه سليمان عليه السلام في قوله: — «وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير، ويعملون له ما يشاء من محاريب (قصور حصينة ومساكن شريفة) وتماثيل (صور للملائكة والأنبياء على ما اعتادوا من العبادات ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم وحرمة التصاوير شرع جديد) وجفان (صحاف) كالجواب (كالحياض الكبار) وقدور راسيات (ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها اعملوا آل داود شكراً (إعبدوه شكراً) وقليل من عبادي الشكور المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته ومع ذلك لا يوفي حقه، لأن توفيقه للشكر نعمة تستدعي شكراً آخر لا إلى نهاية)(٢).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ١١ ص ٣٢١

(٢) مراجع تفسير البيضاوي جـ ٢ ص ٢٥

ثم هدانا الله جل شأنه فيما بعد ذلك إلى أن خلط النحاس بالحديد يؤدى إلى إنتاج مزيج له من الصلابة والمتانة ، ما يجعل من الصعب العسير النيل منه أو التأثير فيه ، وذلك فى حكايته تعالى عن ذى القرنين وسده العالى « قال مامكنى فيه ربى خير ، فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً ( أى حاجزاً حصيناً وهو أكبر من السد ) ، أتونى زبر الحديد ( قطعة ) حتى إذا ساوى بين الصدفين ( جانبى الجبلين ) .

قال انفخوا (أى قال للقبلة انفخوا فى الأكوار والحديد حتى إذا جعله ناراً ( جعل المفتوح فيه كالنار بالأحماء ) قال آتونى أفرغ عليه قطراً » ( أى نحاساً مذاباً ) فما اسطاعوا أن يظهروه ( أى يعلوه لارتفاعه ) وما استطاعوا له نقباً ( لسخنته وصلابته ) قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقاء(١) .

وفى ذلك كله إشارة صريحه من القرن إلى الصناعات القائمة على كل من الحديد والنحاس ، واكتساب المال من هذه الصناعات ، وهذا ولاشك دليل على أهتمام القرآن بالصناعات كاهتمامه بغيرها من كل ضروريات الحياة ولوازم البقاء .

٢ — الصناعات القائمة على الإنتاج الزراعى :

وأما فيما يختص بالصناعات القائمة على ذلك الإنتاج . فقد أشار القرآن إلى بعضها كصناعه الملابس ، ووردت هذه الإشارة صريحه فى قول الله جل شأنه « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون(٢) .

---

(١) الكهف (٩٥ — ٩٨)
(٢) الأعراف ٢٦

فقد أمتن الله على بنى آدم فى هذه الآية بأن هيأهم سبيل الحصول على الملبس الذى يستترون به سوآتهم ويوشون به أنفسهم فى مناسبات التجمل وهيأ لهم مادته من القطن والصوف والحرير وما إلى ذلك ،وألهمهم بما فيهم من غرائز — طرق استنباتها وطرق صناعتها بالغزل والنسج والخياطه ، ولفت أنظارهم إلى أن تقوى الله فى الانتفاع بتلك النعمة والوقوف بها عند الحد الذى رسم وهو أساس الرضا وأساس الشكر وهو الذى يحفظ السوآت من أن تظهر أو ترى ، وهو الذى يجمل الحس والنفس .

وإذا كان لهذه الآية ولالتها الصريحة التى تدل عليها كلماتها بمقتضى اللغة العربية فإن لها بعـــد تلك الدلالة إيماءات جدير بالناظرين فيها ، وبالمتعرفين على نواحيها أن ينتبهوا إليها وأن يسيروا فى طريق معرفتها بها.

وهذه آية اللباس وانزال مادته وتمكن الناس منها تتحدث عن اللباس الموارى للسوأة وعن الرياش والصناعه والجد فى تحصيل موادها وتوحى بأن ستر العورة وزينة التجمل من أهداف الحكمة الالهية فى تمكين الإنسان الإنسان من مادة اللباس وصناعته ، ومن طلب التقوى ومراعات حق الله كما توحى زيادة على ذلك بأهمية أكتساب المال من هذه الصناعة ، ونبذ ما يخالف ذلك مما يسير عليه البعض من الإستنكاف عن مزاولة تلك الصناعة وماشابهها زعما منهم لاتتناسب مع شخصياتهم ولوأدى بهم ذلك إلى التبطل والتعطل والتطفل على غيرهم من الناس ، فهذا هو العيب الذى يشنع على خطورته ما ورد فى الصحيح من قبول النبى عليه السلام « ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود كا يأكل من عمل يد »(١) .

---

(١) البخارى حـ ٢ ص ٧٧

أما صناعة النجارة فقد أشار إليها القرآن فيما ورد فيه حكاية عن نبي الله نوح عليه السلام، وصنع السفينة وأمر الله له بذلك في قوله (فأوحينا إليه أن أصنع الفلك بأعيننا ووحينا، فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين أثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون[1].

وذلك أن نوحا عليه السلام لما أيقن بعدم إيمان قومه وأشتد وقع إيذائهم عليه هو ومن معه دعا ربه متعجلا نزول العذاب بهم فأنبأه بمزقهم، وأوحى إليه بمباشرة صنع السفينة تحت رعايته، ومباشرة حفظه له. وبعد أن علمه كيفية صناعتها فاستحضر لها خشب الساج وصار يصنعها في البرية بعيداً عن الماء مما جعل قومه يهزءون به لذلك قائلين له: صرت بخاراً بعد أن كنت نبيا، ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملء من قومه سخروا منه قال أن تسخر منا فإن نسخر منكم كما تسخرون، واستمر على ما هو عليه حتى أتم صنعتها في عامين وورد أن طولها كان ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون وسمكها ثلاثون، وجعل لهـــا ثلاث بطون لحمل في أسفلها الدواب والوحش، وفي أوسطها الأنس، وفي أعلاها الطير»[2].

وأنتظر، بعد إتمامها، علامة البدء في ركوبها هو ومن أمر الله أن يسلكهم معه فيها من أهله والمؤمنين به . . . وكانت العلامة ما بين الله من فوارق الماء من النور، وعند ظهورها سار بها هو ومن معه، ولم يترك من أهله إلا من قضت إرادة الله بإهلاكهم .. وقد نهى عن الدعاء باستدفاع العذاب عنهم لما جرى به القضاء من غرقهم وتدميرهم، «ولا تخاطبني في الذين ظلموا أنهم مغرقون».

---

(١) المؤمنون ٢٧

(٢) تفسير البيضاوي جـ ١ صـ ٣٨٩

حكاية القرآن لهذا كله دليل واضح على ترغيب الاسلام فى صنعته التجارة والتكسب منها . وهى من بين الصناعات التى تقوم على الأخشاب المتحصل عليها من الإنتاج الزراعى .

وفى القرآن بالاضافة إلى ذلك تنويه واضح بنوع ضخم من السفن يسير فى البحار كالجبال « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام »(١)

وتأتى الإشارة إلى صناعة عصر الأدهان من الزيتون وغيره وإليها الاشارة فيما بشر به يوسف أهل مصر بعد انقضاء أعوام القحط والجدب. وهو ماحكاه الله عنه فى الآية الشريفة « ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس ومنه يعصرون »(٢)

وإن كانت هذه البشارة صادرة منه عليه السلام وفيها توصية إلى هذه الصناعة . فليس ذلك مخصوصاً بقوم دون قوم ، وإنما هو عام يتناول كل من تتوفر لديه أصول هذه الصناعة . ليقوم بها ويتكسب منها إذ أن الأصل فى الأشياء الإباحة حتى يأتى دليل بالحظر منها .

٣ — الصناعات القائمة على الإنتاج الحيوانى المتأنس .

فقد أشار القرآن إلى بعضها ، كالصناعات القائمة على الأنعام وهى ماتكون باستخلاص ألبانها وتحويلها إلى شيء ما ينتفع به منها ، وصناعة دبغ جلودها للارتفاق بها سفراً وحضراً ، وصناعة مايستفاد به منها من ملابس ولحف وقطف وما إلى ذلك من مختلف ألوان الأثاث والمتاع وتأتى الإشارة إلى ذلك واضحة فيما يمتن الله به على عباده من نعمة خلق الأنعام لهم وتذليلها لمنافعهم إذا يقول سبحانه « والأنعام خلقها لكم . فيها دفء

---

(١) الشورى ٣٢ (٢) النمل ٥

ومنافع ومنها تأكلون »(١) ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعاً إلى حين »(٢)

وأما الحيوانات غير المستأنسة كبقر الوحش وما على شاكلته بالإضافة إلى سائر الطيور كذلك .

فقد نبه القرآن إلى حل رضاعه صيدها بجوارح السباع والطير أو بالآلات المعدة لذلك الغرض .

وهذا فيما أورده جوابا على سؤال توجه به المسلمون إلى رسول الله ﷺ بخصوص هذا الشأن ، « ويسألونك ماذا أحل لهم . قل أحل لكم الطيبات : وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب »(٣)

فقد أباحت الآية اصطياد الحيوان من طير وغيره بجوارح السباع والطير كما أباحت الأكل من هذا الصيد بعد توفر شروط تعليمها وهي أن تكون بحيث إذا أرسلت استرسلت ، وإذا زجرت انزجرت ، وإذا قتلت صيداً لم تأكل منه ، وأن يتكرر منها ذلك لبعلم استمرار تأديبها »(٤)

على أن هذا الاصطياد بما تقدم مشروط بألا يكون من محرم بحج أو عمره وألا يكون المصيد من حيوان الحرم « أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم . غير محلي الصيد وأنتم حرم(٥) أي ما كان صيداً فهو حلال في الأحلال دون الأحرام ومالم يكن صيداً فهو حلال في الحالين(٦)

---

(١) يوسف ٤٩ (٢) النحل ٨٠
(٣) المائدة ٤ (٤) الاقناع حـ ٤ ص ٣٤
(٥) المائدة ١ (٦) الجامع لأحكام القرآن ١٠٣٢

بيد أن هذا التحريم بذلك الوصف ليس عاما لكل صيد ، وإنما يستثنى من دائرة عمومه صيد البحر فهو حلال للمحرم وغيره « وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرم » .

كما أنه غير مقصور على مجرد الاصطياد والامساك إلى نهاية مدة الأحرام أو الخروج من الحرم إلى الحل ، وإنما يشمل قتل الصيد ولو لغير إمساكه وأكله .

فقد روى أن أبا اليسر واسمه عمر بن مالك الأنصارى كان محرما عام الحديبية بعمرة فقتل حماراً وحشيا

وبناء على هذا الحكم كشف القرآن عن لون من الاختبار أمتحن الله به طوائف من المسلمين المحرمين بخصوص أمر الصيد كما أختبر غيرهم من الأمم السابقة ، اذ كان ييسر لهم الحصول عليه وهم فى إحرامهم بشتى أنواع التيسير ، ليظهر مقدار إيمانهم وتقواهم فى هذا المقدار .

« يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب(١)

يقول القرطبى ( ليبلونكم ) أى ليختبرنكم والابتلاء الاختبار و كان الصيد أحد معايش العرب العاربة ، وشائعا عن الجميع منهم ، مستعملا جدا فابتلاهم الله فيه مع الإحرام والحرم كما ابتلى بنى اسرائيل فى ألا يعتدوا فى السبت ، وقيل إنها نزلت عام الحديبية ، أحرم بعض الناس مع النبى ﷺ ولم يحرم بعضهم فكان إذا عرض صيد اختلف فيه أحوالهم وأفعالهم ومحظورات حجهم وعمرتهم »(٢)

---

(١) المائدة ٩٤

(٢) الجامع لأحكام القرآن ص ٢٢٩٧

ومع هذا فإذا انتهى شرط الامتناع وحرمة المصيد بحصول الحلل فقد انتهى الحظر وثبتت الإباحة عملا بصريح القرآن « إذا أحللتم فاصطادوا »(١) وعندئذ يكون الاصطياد مأذونا به وموجها إليه وهو وإن كان الوسيلة البدائية فى حياة البشرية فإنه لايزال وسيلة للحصول على نوع من المال فى الأوساط التى أرتقت وتحضرت ـ فصيد الطير والحيوان هوايه وتجارة يمثل مورداً ضخما من موارد المال للجماعة والأفراد .

٤ — الصناعات القائمة على المواد المستخلصة من البحار

فى القرآن تنبيه للعقول إلى بعضها أيضا ، كصناعة صيد الأسماك وما إليها من حيوانات البحر التى تستخرج من الملح والعذب معا . وإليها الإشارة بامتنان الله على عباده حيث جعلها الغاية من تذليل البحر لهم للانتفاع به ركوبا واصطياداً

« وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج، ومن كل تأكلون لحما طريا »(٢)

ووصف السمك وغيره من حيوان البحر بهذا الوصف لأنه أرطب لحما ويقتضى هذا الامتنان يكون ذلك الاصطياد مباحا للمحرم وغير المحرم ويباح للجميع الانتفاع به . وبما يقذفه البحر على شاطئه فيستفيد به المقيم والمسافر .

« أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة »(٣)

وكصناعة الغوص لاستخراج اللآلئ من الماء الملح عند امتزاجه بالماء العذب « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان »(٤)

---

(١) المائدة ٢ (٢) فاطر ١٢
(٣) المائدة ٩٦ (٤) الرحمن ٢٢

ووردت الإشارة إلى هذه الصناعة والاكتساب منها فى القرآن من خلال امتنان الله على نبيه سليمان بما أتاح له مما يعلمه له الشياطين من الغوص تحت الماء لاستخراج اللآلىء وغيرها بالاضافة إلى مايقومون له بالأعمال سوى هذا ، ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك »(١).

وكان قيام الشياطين له بهذا العمل من قبيل التسخير ، حيث ورد الامتنان به فى عداد ما أمن الله به عليه بتسخيره له «فسخرنا له الرياح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص»(٢) .

وكصناعة تمويل ورد البحر إلى حلى يتحلى به الرجال والنساء «وتستخرجون حلية تلبسونها»(٣) .

وفى تخصيص ليس هذا الحلى بالنساء فى كلام القاضى البيضاوى تكلف لا داعى له إذ يقول : أى تلبسها نساؤكم فأسند إليهم لأنهن من جملتهم ولأنهن يتزين بها لأجلهم »(٤) .

إذ أن الحلية التى تصنع مما يستخرج من البحر هى شىء غير الذهب الذى ورد النص صريحاً بتحريمه على الرجال ، ومعنى هذا أنها لا تكون حلالا فى الاستمتاع بها منهما .

وعلاوة على ذلك كله جاءت إشارات فى القرآن إلى صناعة الطب «وأبرىء الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله »(٥) .

---

(١) الانبياء ٨٢ (٢) الأنبياء ٣٦ ، ٣٧
(٣) فاطر ١٢
(٤) تفسير البيضاوى جـ ١ ٤٥٤
(٥) آل عمران ٤٩

وصناعة المباني وتشييد القصور ، قيل لها أدخلي الصرح ، فلما رأته حسبته لجة و كشفت عن ساقيها ، قال إنه صرح ممرد من قوارير»[1] .

إلى غير ذلك من صناعات كثيرة ذكر مثلا منها ولفت الأنظار إليها لتوفير مطالب الأمة منها ، لتتحقق بها عزتها ومنعتها ، وليس ذلك مقصورا على ما نبه إليه فقط إنما يشمل كل منه صنعه للفرد والجماعة فإنها حينئذ تكون مطلوبة وتكون عملا صالحا .

---

(١) النمل ٤٢